

المخطوطات و دورها في كتابة التاريخ

أ.ة. تومي رفيقة

جامعة يحي فارس - المدية -

مقدمة:

إن مصادر كتابة أو تدوين التاريخ عديدة ومتنوعة، ولكنها تختلف من عصر لآخر فمنها المصادر الشفوية كالتراث الشعبي، و المصادر المادية كالأثار المعمارية و التحف الخزفية و المسكوكات، إضافة إلى المخطوطات.

تعتبر المخطوطات خزائن التاريخ، إذ تحتفظ في صفحاتها على تراث الشعوب و عاداتهم، و نشاطاتهم، و ثقافتهم. فهي وسيلة الربط بين الماضي والحاضر، للكشف عن كثير من الحقائق التاريخية أو تصحيحها و توضيحها¹.

فالمخطوطات هي المادة الخام التي يولع بها المؤرخون ليستنتقوا كل حرف فيها بما يكشف الأسرار و يجيب عن الأسئلة ويفك الألغاز، وتعتبر حتى الآن مصدر إلهام للكثير من المؤرخين في العالم.

تتناول هذه الدراسة في أجزائها تعريفاً بماهية المخطوط وأنواعه وصلته بالتاريخ ورسائله الحضارية على مر العصور، كما تتحدث عن دور المخطوط الحضاري كمصدر للمعرفة التاريخية، لذا سنحاول من خلال بحثنا الإجابة على بعض التساؤلات و التي تمثل إشكالية موضوعنا، فهل فقدان تراثنا المخطوط يعني فقدان شخصيتنا و تاريخنا؟ و ما هي الوسائل

المعتمدة من طرف المؤرخ لقراءة المخطوط قراءة علمية صحيحة ؟ وما هو أثر المخطوطات في كتابة التاريخ؟ و ما هي موضوعات المخطوطات التي يقرأها المؤرخ ؟

تعريف المخطوط:

رأينا أنه من المفيد أن نبدأ دراستنا هذه بتعريف عام للمخطوط، و تحديد ماهيته من خلال المراجع التاريخية، فمصطلح " مخطوط " هو كل ما كتب بخط اليد إما رسالة، أو وثيقة، أو عهداً، أو كتاباً، أو نقشا على الحجر، أو رسماً على القماش، كتب بلغة عربية أو غير عربية².

¹ عبد العليم(عبد الرحمن خضر)، المسلمون وكتابة التاريخ، الدار العالمية الكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1995م، ص43.

² يوسف(مصطفى مصطفى السيد)، العلم و صيانة المخطوطات، جدة، 1984، دار عكاظ للنشر و التوزيع، ص 15.

كما عرّفت المخطوطة في المعاجم و الموسوعات الأجنبية بأنها الوثيقة، سواء كانت نصاً موسيقياً أو أعمالاً أدبية مكتوبة باليد أو بشكل مطبوع من نسخ متعدّدة ، بينما الموسوعة الأمريكية فترى بأنها «المكتوبة باليد، في أي نوع من أنواع الأدب سواء كان على ورق أو مادة أخرى، ما عدا المواد المطبوعة»³.

فالورق يعتبر وعاء مادي تحفظ فيه المعارف، فقد كان لتطور صناعته عامل مساعد للتدوين التاريخي من الذاكرة إلى الشكل المكتوب⁴، و ذلك بنقل أحداث و ظواهر إجتماعية و أوضاع سياسية و دول سادت، لها سماتها و خصائصها و مقوماتها المميزة⁵.

المخطوطات أهم مصدر في كتابة التاريخ:

لا يستطيع المؤرخ أن يكتسب من المخطوطات مختلف المعارف التي تهتمه إلا بالقراءة الواسعة و الموضوعية⁶، باعتبارها من أهم المصادر و المراجع الأساسية التي يستند عليها في كتابة نصوصه التاريخية. فالمخطوط بالنسبة له وثيقة تمثل مستند علمي و تاريخي، تمدّه بالحقائق وتفتح له مجال النقد، وتؤكد له حقائق ثابتة⁷، كونها تنفي أو تؤثّق الحدث و الواقعة، و تسد الثغرات الناقصة بإستكمال الحلقات المفقودة من مسائل السياسة، والاقتصاد والتجارة، وعادات الشعوب وتقاليدهم ونظم حكمهم.

كما أمكنت المخطوطات للمؤرخين، من تحديد الألقاب التي إتخذها السلاطين و الولاة لأنفسهم⁸، و تتبع مضامينها عبر العصور، و مدلولاتها اللغوية و السياسية و الاجتماعية و المذهبية...و غيرها⁹.

و تحوي صفحات بعض المخطوطات في مضمونها أيضا على أسماء الوظائف و الحرف السائدة خلال فترات تاريخية مختلفة، و طبيعة البيئة الجغرافية السائدة في الأقاليم الشاسعة هذا فضلا الى التوقيعات و الأختام التي تعود للنساخ أو المؤلفين أو الهيئات الرسمية.

³ Encyclopèdia Americana, Inter, éd. U.S.A, American Corporation, 1972, vol, 18, pp. 24, 247

⁴ محمد (كرد علي)، خطط الشام، ج3، دار العلم، بيروت ، 1970، ص23.

⁵ عبد الرحمن (علي الحجي)، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ط3، 1979، مكتبة الصحو، ص13.

⁶ هيوغ (أتكن)، دراسة التاريخ و علاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة محمود زايد، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1982، ص25.

⁷ سليمان (موسى)، الوثائق وأهميتها، مجلة الوثائق العربية، بغداد، الفرع الإقليمي العربي للمجلس الدولي للوثائق، ع 2، ص 18.

⁸ عبد الوهاب (إبراهيم أبو سليمان)، كتابة البحث العلمي و مصادر الدراسات الإسلامية، ط3، دار الشروق، جدة، 1986. ص 65.

⁹ مصطفى (بركات)، الألقاب و الوظائف العثمانية، القاهرة، دار غريب للنشر و التوزيع، 2000م، ص43.

بالإضافة إلى الشروح العديدة و الحواشي على هوامش المخطوط، و ما تحمله من تفسيرات للنصوص و ملاحظات تم وضعها من طرف عالم متقن لفنه، الذي يرى أنّ أهل عصره بحاجة إلى تفسيرها¹⁰.

الشروط الواجب توفرها في المؤرخ لقراءة المخطوط :

إنّ المؤرخ لن يتمكّن من قراءة المخطوط إلا إذا كان موسوعيا في ثقافته، عارفا بالعلوم المتّصلة بصنوف العلوم الإنسانية و بالتاريخ و كتابته، و هي التي يمكن تسميتها بالعلوم المساعدة ومنها علم المخطوطات¹¹.

يختار الباحث المخطوطات التي تناسبه في بحثه، من خلال الكشف عن أصوله التاريخية و التمعن في الأفكار¹²، لاستعراض محتوياتها بكافة جوانبها السياسية و الإقتصادية وكذا النهضة العلمية، ثم يتطرق إلى المخطوطة نفسها، وكيف تم إختيار النسخة الأم، ويعرض الأسباب في إختيار هذه النسخة دون غيرها مما وقع بين يديه من نسخ لهذه المخطوطة، يلي ذلك تفصيل لكل نسخة من هذه النسخ عبر عملية وصفية لكل واحدة منها¹³.

بعد اختيار المخطوط و فهمه، على المؤرخ أن يغربل الحقائق و يُصَفِّيها و يُنَقِّيها و يُمَيِّز بين ما هو واقعي و ما هو مدسوس، فليس كل ما في بطون المخطوطات حقيقة خالصة و إنما فيه الحقيقي و فيه المزيف، و منه الصادق و منه الكاذب. ثم عليه جمع ملاحظاته و المعلومات المتباينة فيفحصها و ينقدها و يقارنها مُجَرِّدا نفسه تجريدا تاما عن عواطفه حتي يصل إلى ما يُؤمن بأنه اليقين¹⁴.

و من الأمور التي يجب على المؤرخ التحكم فيها و التمكن منها علم قراءة الخطوط Paléographie ، أي أن يكون على علم بأنواع الخطوط العربية، وأطوارها التاريخية، و أن يكون عارفاً بمختلف اللغات كاللغة العربية و اللُّغة العثمانية، فالمؤرخ كلما سار في خطوة من خطوات بحثه، يحتاج إلى بيّنة ترشده لتقصّي المشكلات التي يتحرّرها و تصحيح المفاهيم و تحليلها¹⁵.

¹⁰السيد (السيد النشار)، في المخطوطات العربية، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، 1997، ص77.

¹¹عبد العليم (عبد الرحمن خضر)، المسلمون و كتابة التاريخ، المرجع السابق، ص26.

¹²نفسه، ص34.

¹³عبد الحكيم (عبد المجيد الهجري)، تحفة الأسماع و الأبصار، المشرف حسين بن عبدالله العمري، صنعاء، 1997.

¹⁴هاري (إ ب)، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1942، ص6.

¹⁵عبد العليم (عبد الرحمن خضر)، المرجع السابق، ص32.

المخطوطات التي يستعين بها المؤرخ:

لقد كتب العرب و المسلمون في مخطوطاتهم مواضيع مختلفة فنراهم كتبوا في تاريخ العرب، و في تاريخ الرجال و طبقاتهم، و في تاريخ المدن و الأمصار و الخطط وفي التاريخ السياسي وفي تاريخ الأنساب، فهذه الأخبار المتنوعة دونها أصحابها أثناء رحلاتهم لإكتشاف الأقطار الشاسعة، فكتبوا ما سمعوه من أفواه أعيان العصر أو عامتهم، و وصفوا ما شاهدوه من طبقات الشعب، و بلاط الحكام الذين زاروا قصورهم.

تعددت مواضيع المخطوطات المستعملة من قبل المؤرخ ، و هذا أن كتابة التاريخ تستدعي كل العلوم الاجتماعية و العلمية و الاقتصادية و الدينية، أي معرفة الاحوال العامة لحياة الانسان مكانا و زمانا، و من أمثلتها:

-**المخطوطات التاريخية** التي نميز فيها مخطوطات التاريخ العام "كتاريخ الأمم و الملوك للطبري" المترجم الى اللغة الفارسية¹⁶(16)، و " الكامل في التاريخ" لابن الأثير و غيرهما، و منها مخطوطات تختص بتاريخ بلدان معينة، مثل تواريخ الأندلس الكثيرة كمؤلفات ابن حيان القرطبي و ابن بشكوال و المقري و ابن الأبار و غيرهم. و أخرى عني مؤلفوها بتاريخ دمشق "لابن عساكر"¹⁷.

-**المصنفات الموسوعية** مثل مصنف ابن عبد ربه (246هـ-328/860م)العقد الفريد خلال القرن العاشر¹⁸.

-إضافة إلى **المخطوطات الجغرافية** التي يستعين بها المؤرخ في بحثه، لأن الارض بما تشتمل عليه من جبال و أنهار، و مدن و أمطار، و بما تتعرض له أقاليمها المختلفة من حر و برد أو ما فيها من غابات و أشجار...الخ. فهذه الأرض كانت المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، و المؤرخ إذا لم يعرف ذلك كلّه تلتبس عليه الأمور و لا تستقيم معه الأحكام، و من المخطوطات الجغرافية التي ساهمت في كتابة التاريخ مخطوط "كتاب البلدان" لليعقوبي و معجم البلدان لياقوت، و يمكن القول أن إتساع الأقاليم قد أدى بالمؤرخ إلى توجيه إهتمامه نحو الجغرافية¹⁹.

كذلك فإن المخطوطات الأدبية و الدينية هي أيضا تضيء المعاني الأوسع لعمل المؤرخ بما تحمله من مضامين معرفية، سواء أكانت ملحقات أدبية و شعرية أو علوم شرعية، كتبت في إطار مكاني و زمني خاص. كل ذلك يوضح للمؤرخ رؤية شاملة عن المؤلف و مذهبه، و وسطه الاجتماعي، إضافة إلى

¹⁶ Louis Dubeux, Chronique d'Abou-Djafor Mohammed Tabari, fils De Djarir, Fils D'yezid, traduit d'après les manuscrits de la bibliothèque du Roi; Paris; 1836.

¹⁷ سماء (زكي المحاسني)، مكتبة المبك فهد الوطنية، الرياض، 1999، دراسات في المخطوطات العربية، ص 27

¹⁸ ك. بويكا، المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة نايف ابو كرم، دار علاء الدين، ط1، دمشق، 1999، ص 83

¹⁹ عبد العليم عبد الرحمن خضر، المرجع السابق، ص ص 45-47.

أسماء النساخ و المزوقين أو المذهبين، و من أمثلة تلك الكتب المخطوطات المصاحف و المخطوطات المصورة كمخطوطة كلية و دمنة لابن المقفع ، و مخطوطة مقامات الحريري للهمذاني.

و في الختام يمكن القول أن العلاقة بين علمي التاريخ والمخطوطات علاقة عضوية، تربط بين المؤرخ وعالم المخطوطات برابط الهدف الذي يسعى إليه كل منهما وهو الوصول إلى الحقيقة، ولقد أصبح المنهج الوثائقي أحد الروافد الأساسية في مجرى الحقائق التاريخية. فبدون المخطوطات وأشكالها المختلفة لا يمكن كتابة التاريخ.

و أي تاريخ يكتب في غياب المخطوطات هو تاريخ ينقصه الكثير من الحقائق، فالمخطوطات هي الشاهد الأكبر على التاريخ و الدليل الأعظم على السمة الحضارية لأي شعب من الشعوب إنها ذاكرة الأمة.